ابن بطوطه وبلاد السودان الغربي

(تابع ما قبلهُ)

واصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا في السير الى ان دخلنا الى مدينة تكدًا ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجوزلي واضافني قاضيها ابو ابرهيم اسحق الجاناتي وهو من الافاضل واضافني جعفر بن محمد المسوفي . وديار تكدًا مبنيّة بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونهُ وطعمهُ بذلك . ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكلهُ التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدًا من امدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدًا بمثقال ذهب . وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيًا لم يبلغ واما الرجال فقلما تقتلهم . وقد لدغت يومًا وانا بها ولدًا للشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات لحينهِ وحضرت جنازتهُ . ولا شغل لاهل تكدًا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولاهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك اهل مالي وابوالاتن ولا يبيعون المعلّمات منهنّ الا نادرًا وباثمن الكثير

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليهِ في الارض ويأتون بهِ الى البلد فيسبكونهُ في دورهم بفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوهُ نحاسًا احمر صنعوا منهُ قضبانًا في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب اربع مائة فقيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبع مائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحمل النحاس منها الى مدينة كُوبَر من بلاد الكفار والى زغاي والى بلاد تَرْنُو وهي على مسيرة اربعين يومًا من تكدًا واهلها مسلمون ثم ملك سمهُ ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الا من وراء حجاب . ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والغلمان والثياب الجمدة ويحمل النحاس ايضًا منها الى جوجوة وبلاد المورتبين وسواها

ذكر سلطان تكدًا — وفي ايام اقامتي بها توجه القاضي ابو ابرهيم والخطيب محمد والمدرس ابو حفص والشيخ سعيد بن علي الى سلطان تكدًا وهو بربري يسمّى إزار وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينهُ وبين التكركري وهو من سلاطين البربر ايضًا منازعة فذهبوا الى

الاصلاح بينهما فاردت ان القاه فاكثرت دليلاً وتوجهت اليهِ واعملهُ المذكورون بقدومي فجاء اليَّ راكباً فرساً دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليهِ ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعهُ اولاد اختهِ وهم الذين يرثون ملكهُ . فقمنا اليهِ وصافحناهُ وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك وانزلني في بيت من بيوت المناطبين وهم كالوصفان عندنا وبعث اليَّ برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر . وكان في جوارنا بيت امهِ واختهِ فجاءتا الينا وسلَّمتا علينا وكانت امهُ تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونهُ ذلك الوقت وبالغدو واما الطعام فلا يأكلونهُ ولا يعرفونهُ . واقمت عندهم ستة ايام وفي كل يوم يبعث الينا بكبشين مشويين عند الصباح والمساء واحسن اليَّ بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنهُ رعدت الى تكدا

ذكر وصول الامر الكريم اليَّ — ولمَّا عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بامر مولانا امير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول الى حضرتهِ العلية فقبَّلتهُ وامتثلتهُ على الفور واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم واللبن والسمن يُشترى بالاثواب وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر شعبان سنة اربع وخمسين (وسبعماية) في رفقة كبيرة فيهم جعفر النواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدا وفي الرفقة نحو ستماية خادم لوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركري وفي ارض كثيرة الاعشاب يشتري بها الناس من يرابرها الغنم ويقددون لحمها ويحملهُ اهل توات الى بلادهم . ودخلنا منها الى بريَّة لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة ايام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في بريَّة لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق به طريق تات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فاذا غسل به الثوب الابيض اسود لونهُ وسرنا من هنالك عشرة ايام ووصلنا الى بلاد هكَّار وهم طائفة من البربر مسلمون لا خير عندهم ولقينا احد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له اثواباً وسواها وكان وصولنا الى بلادهم في شهر رمضان وهم لا يفيرون فيهِ ولا يعترضون القوافل واذا وجد سُرَّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا لهُ وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر . وسرنا في بلاد هكَّار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر اهل لثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا واعلمونا ان اولاد خراج وابن يتمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات فخاف اهل القافلة من ذلك . ثم

وصلنا الى بودا بضم الباء الموحدة وهي من اكبر قرى توات وارضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن اهلها يفضلونهُ على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب واكل اهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونهُ كما يختزن التمر ويقتاتون بهِ ويخرجون الى صيدهِ قبل طلوع الشمس فانهُ لا يطير اذ ذاك لاجل البرد. واقمنا ببودا اياماً ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في اوسط ذي القعدة الى مدينة سجلماسة وخرجت منها في ثاني ذي الحجة وذلك اوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم أرَ اصعب من طريق أم جنيبة ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فأس حضرة مولانا امير المؤمنين ايدهُ الله فقبّلت يدهُ الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجههِ المبارك واقمت في كنف احسانهِ بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما اولانيهِ من جزيل احسانهِ وسابغ امتنانهِ ويديم ايامهُ ويمتع المسلمين بطول بقائهِ. وهاهنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبع مائة والحمد لله وسلام على عبادهِ الذين اصطفى »

انتهى ما نقلناهُ من رحلة ابن بطوطه الى بلاد السودان الغربي وهي آخر رحلاتهِ. ويرى الناظر فيها انها مفعمة بالفوائد عن حال سكان تلك البلاد في عصرهِ. واول شيء ينتبه لهُ ان سكان تلك البلاد كانوا في ذلك العصر ارقى مما صاروا اليهِ في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر حينما دخلها الاوربيون. وانهم كانوا مسلمين في الغالب يكرمون رجال العلم ويأتيهم القضاة والمعلمون من المغرب الاقصى والقطر المصري والشامي فيحازن عندهم على الرحب والسعة. وان شأن المرأة كان رفيعاً عندهم مساوياً لشأن الرجل. وقد قال ابن بطوطه ان البنات كنَّ يخرجن عرايا ولعل الشبان كانوا كذلك وهذه هي الحال الآن في اواسط افريقية والعفة هناك ليست دون ما هي عليهِ في البلدان التي يلبس رجالها ونساؤها اغلى الملابس واستر لها للجسم. ويعجبنا ما قالهُ لهُ احد التجار في ايوالاتن وهو ان مصاحبة النساء للرجال عندهم على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها. وقال هو قبل ذلك ان السكان هناك مسلمون محافظون على الصلوات وتعلُّم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهنَّ على الصلوات

ومما يستحق الذكر ايضاً امتداد التجارة في ذلك العصر بين السودان الغربي وسائر الاقطار الافريقية والشرقية. وحبذا لو عني احد الباحثين بتفصيل هذه المواضيع